العارفون لا يعجبون بأنفسهم

من أدواء النفس الخفية ـ والتي يحتاج صاحبها يقظة على الدوام، حتى يسلم منه ـ داء العُجب بالنفس، فقد يمن الله على بعض عباده بنعمة من النعم، من علم، أو مال، أو جاه، أو موهبة حسنة، فيحسب غيرُ الموفق من أولئك أنه ابن بَجْدتها، وأبو عُذْرتها، وأنه ابن جَلَاها، وطلَّاع ثناياها، فربما صعَّر خده للناس، ونأى بجانبه عنهم، وربما استنكف عن قبول الحق، وهذه مهلكة ومزلة قدم، وما يؤذي فيها المرء إلا نفسه، والمرء إذا لم يلحظْ نفسه فإنها تقوده إلى العطب؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

وقد ترجم الذهبي لأحد العلماء الكبار، فقال: «الشيخ، الإمام، العلامة، الحافظ، القاضي» لكنه ذكر بأنه قد أصيب بداء العُجْب، فقال: «كان لا يَعُدُّ لأحدٍ من الفقهاء وزناً» ثم ذكر عاقبته فقال: «كان من بحور العلم، فأخمله العُجْب»[1].

وقد حذق الإمام ابن القيم ـ كعادته ـ فصوَّر هذا المشهد، فقال: «مواهب الرَّب ـ تبارك وتعالى ـ تنزل على

(١) سير أعلام النبلاء (١٥/ ٥٤٤ ـ ٥٤٦).

القلب والروح، فالنفس تسترق السمع، فإذا نزلت على القلب تلك المواهب ـ وثَبَتْ؛ لتأخذ قسطَها منها، وتصيِّره من عدتها وحواصلها.

فالمسترسل معها، الجاهل بها يدعها تستوفي ذلك، فبينا هو في موهبة القلب والروح، إذ صار ذلك كله من حاصل النفس وآلتها وعددها، فصالت به وطغت؛ لأنها رأت غناها به، والإنسان يطغى أن رآه استغنى بالمال، فكيف بما هو أعظم خطراً، وأجل قدراً، من المال بما لا نسبة بينهما من علم أو حال أو معرفة أو كشف؟ فإذا صار ذلك من حاصلها انحرف العبد به ـ ولا بد ـ إلى طرف مذموم من جرأة، أو شطح، أو إدلال، ونحو ذلك، فوالله كم ههنا من قتيل، وسليب، وجريح يقول: من أين أُتيت؟ ومن أين دُهيت؟ ومن أين أُصبت؟ وأقل ما يعاقب به من الحرمان بذلك: أن يغلق عنه باب المزيد»[١].

ومكمن خطورة هذا الداء أنه ربما أصيب به الإنسان وهو لا يشعر؛ ولذا كان العارفون الموفقون يحاذرون منه أشد الحذر، ويُحْكِمون إغلاق الأبواب التي يظنونها من مداخله.

ومن دقيق ما يذكر هنا ما جاء عن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد قيل له: إن مِتَّ ندفنك في حجرة عائشة مع الرسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؟ فقال: «**لأن ألقى الله بكل ذنب غير**

(١) مدارج السالكين (١/ ٥٢٤).

الشرك أحبُّ إليَّ من أن أرى نفسي أهلاً لذلك»[(١)].

ومن ذلك ما جاء عن الحافظ عبد الغني المقدسي أنه على المنبر لا يقرأ إلا من كتاب مع أنه حافظ كبير لا يكاد يسأل عن حديث إلا ذكره وبيَّنه، وذكر صحته أو سقمه، ولا يسأل عن رجل إلا قال: هو فلان بن فلان الفلاني، ويذكر نسبه!

فقيل له: لم لا تقرأ من غير كتاب؟ قال: أخاف العُجب[(٢)].

وفي هذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «العارفون، وأرباب البصائر: إذا نالوا شيئاً من ذلك انحرفوا إلى طرف الذل، والانكسار، ومطالعة عيوب النفس، واستدعوا حارس الخوف، وحافظوا على الرباط، بملازمة الثغر بين القلب وبين النفس، ونظروا إلى أقرب الخلق من الله، وأكرمهم عليه، وأدناهم منه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهاً، وقد دخل مكة يوم الفتح، وذقنه تمس قُربُوسَ[(٣)] سَرْجِه؛ انخفاضاً وانكساراً وتواضعاً لربه ـ تعالى ـ في مثل تلك الحال التي عادة النفوس البشرية فيها ـ أن يملكها سرورها، وفرحها بالنصر، والظفر، والتأييد، ويرفعها إلى عنان السماء، فالرجل: من صان فتحه، ونصيبه من الله،

---

(١) صيد الخاطر (ص٤٣٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢١/٤٤٨ ـ ٤٤٩).
(٣) **القربوس**: هو قسمُ السرج المعوجُّ قدَّام المَقعَد، ومن مُؤَخَّره، وهما قربوسان. ينظر: لسان العرب (٦/ ١٧٢).

وواراه عن استراق نفسه، وبخل عليها به، والعاجز: من جاد لها به، فيا له من جود ما أقبحه، وسماحة ما أسفه صاحبها، والله المستعان»[١].

ومن عجيب ما يذكر هنا ما جاء عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه حمل قِربةً على عنقه، فقال له أصحابه: يا أمير المؤمنين، ما حملك على هذا؟

قال: إن نفسي أعجبتني، فأردت أن أذلها![٢].

فرضي الله عن الفاروق وأرضاه، نفسُه هي النفس التقية الزكية الطاهرة البَرَّة، ومع ذلك يحاسبها هذه المحاسبة!

وهكذا الموفقون يحاسبون أنفسهم، ويكبحون جماحها إن رأوا منها تفلتاً.

والمتأمل في سير الأكابر من أهل العلم يجد أن سيرهم مُترعةٌ بالتواضع وخفض الجناح، متجافيةٌ عن العُجْب، نائيةٌ عن مقاعد الكِبْر، وقد ضرب الإمام أحمد رحمه الله في هذا المعنى بسهم وافر، فيحدث عنه صديقه يحيى بن معين، فيقول: «ما رأيت مثل أحمد، صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيءٍ مما كان فيه من الخير»[٣].

(١) مدارج السالكين (١/ ٥٢٤).
(٢) تاريخ دمشق (٤٤/ ٣١٨).
(٣) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢١٤).

ويقول عنه صاحبه الـمَرُّوذي: «قلت لأبي عبد الله: إن بعض الـمحدثين قال لي: أبو عبد الله لم يزهد في الدراهم وحدها، قد زهد في الناس؟ فقال: ومن أنا حتى أزهد في الناس! الناس يريدون أن يزهدوا فيَّ»(١).

ويقول ـ أيضاً ـ: «سمعت أبا عبد الله؛ أحمد بن حنبل، وذكر أخلاق الورعين، فقال: أسأل الله أن لا يمقتنا، أين نحن من هؤلاء؟!»(٢).

ويقول ـ أيضاً ـ: «قلت لأبي عبد الله: ما أكثر الداعين لك! فتغرغرت عيناه، وقال: أخاف أن يكون هذا استدراجاً»(٣).

ويقول محمد بن موسى: «رأيت أبا عبد الله ـ يعني: الإمام أحمد ـ وقد قال له خراساني: الحمد لله الذي رأيتك. قال: اقعد، أي شيء ذا؟ من أنا؟»(٤).

ويقول إسماعيل بن إسحاق الثقفي: «قلت لأبي عبد الله ـ أوَّلَ ما رأيته ـ: ائذن لي أقبل رأسك؛ فقال: لم أبلغ أنا ذلك»(٥).

---

(١) الورع للمروذي (ص١٩).
(٢) المرجع السابق (ص٦).
(٣) المرجع السابق (ص١٥٢).
(٤) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢١١).
(٥) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص٣٦٧).

أما شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد تحدث عنه تلميذه ابن القيم فقال: «لقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيراً: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا في شيء، وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنا الـمُـكَـدِّي وابن الـمُكَدِّي   وهـكـذا كـان أبـي وجَـدِّي

وكان إذا أثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً، وبعث إلي في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنـا الـفـقـير إلى رب الـبـريـات   أنا المسكين في مجموع حالاتي

أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي   والخير إن يأتنا من عنده ياتي[(١)]

فتأمل **أيها القارئ** الكريم في قدر نفس شيخ الإسلام عنده من خلال كلامه هذا؛ لترى ترويضاً كبيراً منه لنفسه، ومطامنة عظيمة لها، وهذا ـ ولا شك ـ من أسباب التوفيق لهذا الإمام الكبير.

ومثل ذلك جاء عن الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فكان يقول عن نفسه:

(١) مدارج السالكين (١/ ٥٢٤) وعدد الأبيات التي أوردها ابن القيم ١١ بيتاً.

بُـنَـيُّ أبـي بـكـرٍ كـثـيـرٌ ذنـوبُـهُ فَلَيس على من نال منْ عِرْضِه إثْمُ
بُنَيُّ أبي بكر جهـولٌ بنفسهِ جهول بأمْرِ اللّه أنَّى له العلْمُ
بُـنَـيُّ أبـي بـكـر غـدا مُـتَـصَـدِّراً يعلِّم علْماً وهُو ليْسَ لهُ علْمُ
بُـنَـيُّ أبـي بـكـر غـدا مُـتـمـنِّـيـاً وِصالَ المعالي والذُّنوب له هَمُّ(١)

يصف نفسه بالجهل، وقلة العلم؛ وهو العالم النِّحرير، وهكذا الأكابر أزكياء أنقياء؛ بعيدون عن الزهو بنفوسهم، والتغني بأعمالهم، وفي ذلك يقول الماوردي: «قلما تجد بالعلم معجَباً، وبما أدرك مفتخِراً، إلا مَنْ كان فيه مُقِلّاً ومُقصِراً؛ لأنه قد يجهل قدره، ويحسب أنه نال بالدخول فيه أكثرَه.

فأما من كان فيه متوجهاً، ومنه مُستكثراً؛ فهو يعلم من بُعْدِ غايته، والعجز عن إدراك نهايته، ما يصدُّه عن العُجب به.

وقد قال الشعبي: العلم ثلاثة أشبار فمن نال منه شبراً شمخ بأنفه وظن أنه ناله، ومن نال الشبر الثاني صغرت إليه نفسه وعلم أنه لم ينله، وأما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحد أبداً»(٢).

ومما يذكر هنا ما حدثني به فضيلة شيخنا العالم العابد عبد العزيز العقل ـ متَّعه الله بالصحة والعافية ـ أنه لما كان

(١) الوافي بالوفيات (٢/ ٢٧٢).
(٢) أدب الدنيا والدين (ص٧٣).

مدرِّساً في جامعة الإمام محمد بن سعود ـ فرع القصيم ـ شرح لطلابه حديث: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»[١].

قال الشيخ: فوقع في نفسي سؤالٌ هو: مَنْ مجدد هذا العصر؟

واستبهم عليَّ تعيين المجدد، وانصرفت من الكلية، وأنا أُعْمِل رأيي في هذا السؤال، فلم أجزم فيه بشيء، فنمت بعد الظهر، فرأيت في المنام سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز جالساً متربعاً مستقبل القبلة، فأقبلت عليه فعانقته وقبَّلته، وإذا بي أسمع صوتاً لا أرى صاحبه يقول: هذا مجدد هذا العصر.

يقول الشيخ عبد العزيز العقل: «فاستيقظت من النوم جذلانَ مسروراً، وصرت أتحين لقائي بالشيخ حتى أبشره بالرؤيا، فيسَّر الله لقاء الشيخ بعد أيام، فبشرته بالرؤيا، وكنت أترقب سروره بها، لكن الشيخ تشاغل عنها، ولم يحفل بها، ولم يُعِرْها اهتماماً».

والخلاصة أنك إذا رأيت الرجل كلما توالت عليه النعم زاد افتقاره والتجاؤه لربه، وتضاعف تواضعه للناس، فاعلم بأنه كيِّسٌ قد تفيأ ظلال التوفيق، وأخذ منه بسبب متين، وأوى فيه إلى ركن شديد.

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١).

وإذا رأيت الرجل كلما توالت عليه النعم تضخمت نفسه، وتراءت له أعماله، فاعلم بأنه عاثر الحظ والرأي، دثاره الخيبة، وشعاره الخذلان، وإن طال به الزمان، وكثر حوله الأعوان.